مهمّات مثقّفين جُدد ؟

الدكتور محسن جاسم الموسوي

لعل التلكؤ الذي يحسه المرء في التعامل مع موضوع بهذه السعة والإشكالية والعمومية أمرٌ مشروع: لا سيما وأن الاحاديث المماثلة في واقع الثقافة العربية ومهماتها كثيراً ما انحدر الى مستوى السفسطة والثرثرة المكرورة، إن لم تنتشله صيحات غضب، تحولت هي الأخرى بحكم صدقها الحادّ وعاطفتها المفرطة الى (أصوات) متمردة أو محبطة فاقدة للتأثير أمام سيل عارم لـ (ثقافة الوضع القائم)، تلك الثقافة التي يراد لها ان تصبح سمة (الركون) أو مرتكزاته الأساسية، والتي تحتضنها مختلف المؤسسات، لكي تكون ذيولاً لما هو قائم، غير متسائلة عنه، او باحثة فيه، أو مانحة إيا روح الثورة والتغيير والتجديد والتأمل. فهل أن ما جرى ويجري في الساحة العربية مسبّب لمناخات جديدة؟ أم أنه هرش في أرض خاملة أو بور؟ لقد كانت صور المذابح والتنكيل مثيرة لاستفزاز الضمير العالمي، على بعده، لدرجة أن (الاعلام) الصهيوني تحرج كثيراً في تعامله مع العالم بابتداع تنويعات جديدة في طريقته القديمة في تقسيط المعلومات وتجزيئها، وتحويلها الى اشارات، الى شخوص، لا الى ايديولوجية، أو نظام، أو دولة، حتى صدّق (بعض) الناس في النهاية أن (بعض) ما جرى كان مسؤولاً عنه (بعض) اشخاص، لهم اسماء وملامح وتواريخ!! ولم يعر (الاعلام) الصهيوني (الاعلام) العربي (الذي يفترض فيه أن يكون خصمه) اهتماماً: حيث أن التجربة القديمة للصهيونية تعتمد على أن (الهبّة) في الاعلام العربي هي (سريعة) و(آنية) وغير قابلة للإدامة أو التطوير!!

ولسوء الحظ فإن محنة الامة وتشتتها قادا ثانية ليس الى الاكتفاء بالآني والسريع وغير الدائم، بل الى إهمال مفرط ومضحك ومبكٍ لكل ما جرى ويجري، برغم أن ما جرى ويجري يستفز الناس، اينما وجدوا، إذا ماكانوا مجرد بشر.. لهم عواطفهم وشجونهم وأحاسيسهم. لقد كان الألم ممضاً، وما يزال.. والمثقف العربي يتساءل ثانية: ما الذي جرى، وما الذي يجري؟ أين نحن من أين.. والى أين..؟

ولكي لانقاد الى (إحباطات) هي بحدّ ذاتها المخارج السهلة من أزمة العذاب والمسؤولية، لا بد لنا أن نكثر من التساؤل ونلحّ فيه، ولا بدّ لنا أن نبحث عما في الثقافة من محن، وعما في المؤسسات من مشكلات، وعما فينا من مآسٍ حان لها ان تظهر على السطح، قبل ان يصبح (الفعل) الفردي بديلاً للثقافة العربية، والجهود العربية، وكل ما هو جمعي.

واعترافاً من التحليل لما سيجري، حيث ان الفرد العربي برغم سهولة ما يصله من (أموال النفط) تارة ومن تسهيلات واغراءات تارة أخرى، لا بد ان يمر في مواجهات حاسمة مع نفسه الآن وغداً، ولا بد أن تتمخض تساؤلاته عن افعال، قابلة لتمزيق البراقع، وأستار الاكاذيب والمحافظة الرثة المزدوجة، أو الثوروية العادية والبائسة إزاء حقيقة ما جرى ويجري!

فهل أن المخططات أكبر من أمة؟ ان المخططات الخارجية كبيرة، ومسعاها لإيجاد جروح لا تندمل بسرعة في ميادين عرقية وطائفية معروفة: ولكن ما الذي فعلته الثقافة العربية للحيلولة دون ذلك؟ وما الذي فعلته المؤسسات والهيئات...؟ لم يحصل أن اقتنعت قوة كبيرة بحجم الأمة العربية وبطاقاتها بأن (المشروع) الخارجي مهيأ له أن يكون فعالاً بهذه الصورة ومخرباً بهذه الحال، ومدمراً بهذا الهول.. الا اذا كان فينا ضعف نتستر عليه، أو إهمال نداريه، أو حتى... لكن كلمة (الخيانة) سرعان ما يفقدونها معناها بحكم استسهالها الدائم والمستمر، والتقاذف المتكرر بها، حتى انها لم تعد تعني ما يراد لها أن تعني: فهي الضعف والإهمال وموالاة الغير، وجرح الأخ والصديق وفقدان المسؤولية.. فهي خيانة الذات والضمير، قبل أن تكون خيانة الشعارات، أو موالاة الاعداء.

واذ أريد لنا أن ندلو بدلونا في هذا الأمر لا بد من بعض (الاجتهادات) النفعية في مجال بهذه المشقة والصعوبة والمسؤولية. وقد لا يكون هناك كثير من خير في تذكر ما آل اليه مركز الأبحاث الفلسطينية وأرشيف مجلة شؤون فلسطينية.. فالمركز الذي يحتوي معلومات عن فلسطين والصهيونية لا يحتويه مركز عربي آخر يمثل خطراً للارث الصهيوني أكثر من ملايين البنادق والتجمعات المسلحة، لأنه يتوجه الى الذهن الصهيوني، أي الى الذهن الذي يقبع كماً ونوعاً خلف (المشاريع) و (المخططات) التي تجد أدواتها التنفيذية في (الحكومة) الصهيونية، والاحزاب الصهيونية والقوى المتحالفة معها، وقواتها المسلحة... الخ. وفي تقديري أن البدء في تأسيس المهمات الثقافية يمكن أن ينطلق من التساؤل في أهمية هذا الفعل؟

إن الثقافة المخيفة هي الباحثة، المنقبة بروح علمية، وبصدق وحرص كبيرين في (الاذهان) المعادية، أي في الاذهان التي قدرت على مر العصور على تحريك (الحدث) وتكوين مواصفاته، تلك الأذهان التي تحكم التفافها الافعوي بحكم معرفتها للأوكار التي لا يرتادها المقابل. ولأن الأمر كذلك، لا بد للثقافة العربية من أن لا تعيد لبوسها القديم، في المناجاة والبكاء والتألم، بل أن تبحث في نفسها، وفي غيرها، أن تواجه المحنة بجرأة الجرّاح الذي لا يمنعه كرهه للدماء من أن يمسك بالمبضع، ما دام فيه ما ينقذ الحياة ويوجد الأمل.. وتخريج عامّ كهذا يمكن أن يُجزأ في تطبيقاته في مجالات الابداع والنقد والاعلام والمعارف والعلوم المختلفة.

وعندما نبصر أنفسنا، وغاياتنا وآمالنا.. نقدر أن نبصر غيرنا بثقة أكبر، وبحرص أكبر، وبمسؤولية اكثر صدقاً.

عند ذلك يكون الدم الجديد حيوياً، متدفقاً في عروق قديمة وجديدة، متصلة بحيوية الصراحة والصدق، تكون اتجاهات.. هي ما نطمح أن نسميه بثقافة عربية جديدة..

بغداد

الدكتور شاكر خصباك

ابن بطوطة ورحلته

دار الآداب

صدر حديثا